المورد

مقـــدمات جـــديدة

لقـراءة الشـعر الجاهـــلي

بقلـــم

خالد محي الدين البرادعي

حرية الاختيار :

بعد مرور خمسة عشر قرنا ـ بالتقريب ـ على تلك الطلائع الابداعية الشاهقة التي غسلتها شمس صحرائنا الخالدة ، ونعمتها عرائس عبقر بين قبلة حب ولمسة انملة كانها ورق العنم. ونقلتها افواه الراحلين بين نجد والحجاز ووادي اليمن السعيد. لتزين نجوم الصحراء وتؤنس وحشة المتوحدين بين الحيرة والشام والانبار . وبين غزة والبحرين ، وفي مناطق اخرى لامست ترابها قدم انساننا المتطلع الى حجب الغيب يود اجتيازهـا ـ حتى ولو بالاحلام ـ . قد يخطر لانسان ما يعيش في عصر الغيب فيه الحدود بين الارض والسماء ، وربما بين كوكبوكوكب ان يسأل . كيف استطاع راعي الشياه وحادي العيس . والباحث عن اسباب البقاء في تلك الدوائر البيض التي تغيب فيها الاتجاهات ان يحول الوجود الى لغة ؟ لم يحتمل هـذه اللغة اعتصارا ومفاضات .. ينفخ منها فيما بعد شحنات علنت بزخم ما فوق زخم الكلام العادي . تتصادم اعنانها باعنانها متولدة من جديد في متحرك وساكن . يترك عند السماع بوحا منغما يرتفع بسامعه الى كون من القوة الخارقة غير المنظورة .. ويكون الشعر الوجه المشرق الذي شد اليه انساننا عبر التاريخ ؟

تشير اشراقات الذهن التي اقبلت من هناك ان الشـعر ضرورة . لم تولد كما عرفناها . بل ثمة ضرورات اخرى ، كانت هي رحيقها المصفى وسلافها المسكر . وليس بدعا ان يكون الشعر احدى ولادات السحر .. تلك اللغة التي حاول الانسان تسلية وحشته عن طريقها . واذا كان لكل شعب من شعوب هذا الكوكب طريقته الخاصة في التعبير عن وجوده في مجالات السحر ، فيكون الانسان العربي قد اهتدى الى مسلاته الساحرة عن طريق الابجدية واذا استطاع علماء « الانتربولوجيا » ان يكتشفوا خصائص الشعوب ، ويدرجوها كلا الى فصيلته من حيث التعبير عن وجوده وتطوير ذاته من اجل البقاء الافضل، فانهم لن يتعبوا طويلا ليكتشفوا ان من اعظم الخصائص التي امتاز بها انساننا العربي ايجاده واحدة من اهم المعادلات الكبرى وهي ـ لغة الشعر ـ طبيعة هي نمت لدى انساننا المتطور . فاهتزت وربت وانت تلك الثمار اليانعة التي نقف بين يديها مبهوتين « لا علم لدينا ولا نكر » عاجزين ـ الا من رجم بالغيب ـ عن تتبع نشأتها الاولى بشكل علمي يدعو الى الاطمئنان . خلـف لنا الاوائل رجزا . وقال القائلون . منه فتق القريض .

كانت تلك المحاولة الانسانية الخالدة ـ الشعر ـ لدى انساننا الجاهلي تدور في فلك المحسوس والملموس من علله المترامي الاطراف . وقبل المضي في هذا البحث اود ان الفت النظر الى ببغائية بعض المحققين من مستشرقين وعرب حول ضيق خيال الانسان العربي وتصاقه بالارض . مقارنة بما اوجده انسـان الاغريق مثلا من مخلوقات اسطورية شاركت في صنع الغيب وصنع الواقع . وهي ان المفاضلة بين الشعوب لا تقـاس بالمقارنة . بل بما ابدع كل شعب على حدة . مع التاكيد الجازم على الطبيعة الجغرافية التي وجد هذا الشعب في احضانها . والتي كانت العلة الاولى لميلاد الخصائص البيئية من سلوك فكري وسلوك عملي لدى كل شعب . ويجدر التاكيد على ان حديثنا هنا ينطبق على الحالة المتطورة التي وصل اليها الشعب العربي بعد المرور بعدة مراحل بدائية كما هي الحال لدى كافة شعوب العالم .

اجل ان الشعر العربي الجاهلي الذي قرأناه يدور في فلك المحسوس والملموس انطلاقا من بساطة الحياة الصحراوية الجافة الموشاة بين الان والان بتطريز جميل من موجة تداعب الساحل وشجرة نخيل ودالية .

ويسرح العربي بصره في الافق بين رحابة الصحراء والسماء الصافية لينطبع في اعماقه الصفاء والوضوح والبساطة . وتتمازج في وجدانه اشتات الصور منقولة عن واقع هـو في احشائه . النجوم . الشمس . القمر مسايل الامطار. النسيم. الرياح . الجفاف . الكلاء . احجار الموقد . الظبـاء . حيوانات الصحراء المالوفة لديه . ادوات بقائه وتاكيد ذاتـه . السيف الرمح . الخمر ذات الطبيعة السحرية التي الهمت انساننا الجاهلي الكثير . يضاف هذا كله الى المراة التي لم يرسمها الشعر القديم كما هي ـ قط ـ .

وعندما نؤكد على ظاهرة تنمية اللغة وتطويرها لدى العربي حتى لكانها الوجود كله ، منطلقين من قراءة تلك الجداول اللغوية الصافية التي تكونت من خلال احساس العربي بقيمة الحركة والنمو . فليس ترفا ان يكون للاسد مئات « الصفات » والتي نقلت الينا على انها « اسماء » وهي في الحقيقة مرافقة لحركـة الاسد وليست الوابا البسه اياها الشعر القديم . وصفات الناقة او الجمل تراكمت في قواميسنا من جراء احساس ابن الصحراء بقيمة وقدرة هذا الحيوان الذي وصلنا بالشعر كما الاسطورة التي لا حدود لابعادها . واذا قدر من خلال ضغط عوامل

البيئة ان يكون السيف رفيق انساننا نحرك بالتاكيد قيمة الصفات التي تعد بالثات لهذا الصديق الذي طالما جلى الكرب عن وجه انساننا في رحلة الحياة الطويلة . وقدر لتلك الحياة الزاخرة بالحركة ان تكون العين اثر لشاعرنا الجاهلي يغرف منه غرفا على مدار العصور .

ولعة وجه داخلي للحياة العربية في الشعر هو العمق الانساني الذي ترجمه شاعرنا رجزا وقصيدا . احساساته ونوازعه ونزواته . خيرها وشرها بلا قصد ومواربة . والتي ما كان يكتفي بترجمتها الى لغة الشعر بقدر ما كان يوالم اعظم المواءمة بين اللفظة والحركة . بين التصور والحياة . بين القول والفعل . لم يكن الكرم كاعظم خاصة تمتع بها انساننا الجاهلي فقط شاعرية . بقدر ما كان الواقع التطبيقي لها يعكسها في الشعر . ولم يتغن بالشجاعة لانها كلمة تعكس مدلولا انسانا نبيلا بقدر ما كانت الشجاعة جزءا لا ينفصم عن كيانه الانساني العام . ولم يتغزل الجاهلي بالمراة وهو بعيد عن ممارسة الحب . بل لم يصف المراة كما هي ابدا . بقدر ما كان يصفها كما يحبها .

كان الشاعر الجاهلي اذن مخلوقا . فارسا . كريما . عاشقا . نبيلا . يحتضن هذه الخصائص السامية التي تمثل تطور المخلوق البشري كما يحاول الخيال الانساني الراقي ان يصوره .

اما التصاق الارض والمراة بتكوين القصيدة الجاهلية . فانهما يحتلان لنا الجانب الاهم من خصائص الشعر الجاهلي الذي علينا ان نتعمقه بوضوح .

البيئة :

الجاهلي الشاعر الف نفسه كما قلنا في بيئة ذات خصائص معينة . هي التي ساعدت على تكوين شعره والوصول به الى مراقي الكمال ممثلا بتلك القصائد الجياد التي قرانها للفحول منهم . ولا نبالغ اذا اعتبرنا ان الشاعر الجاهلي كان يكثف وجوده بكافة جوانبه في قصيدة واحدة . ولان الطبيعة متقاربة الابعاد في انساننا الشاعر . تشابهت القصائد من حيث مسرحها الفكري . واشعاعاتها الذاتية والموضوعية ـ الامر الذي دعا النقاد فيما بعد ليعتبروا القصيدة الجاهلية كتابا مقدسا لا يجوز الخروج على نصوصه ـ وحرية الجاهلي الشاعر وبلا حدود تبرز في كل اثر شعري وصلنا . صارخا ناطقا بان الشعر الجاهلي هو التجربة الانسانية الحية التي ارتادها شاعرنا الفراء. مستودعا لديها كا نوازعه واحلامه وتطلعاته ونظرته في ذاته ـ واهله ـ ووجوده .

والشعر الجاهلي هو الطفل الاسطوري الذي عانق الحياة كاعظم ابنائها المخلوقين الخالقين دون وصاية من ناقد او لغوي او رجل تاريخ او عروضي . نما كما استطاعت طبيعته ان تمنحه عوامل النماء . بلا تاثير من مربين وحملة اختام وسدنات عروش . ووصل بالنمو والتطور الى اعلى درجات الكمال التي ان لم تتصل بالمطلق فلان طبيعة الكمال الشعري تقف هناك .

شعر راى الواقع وعاشره وعاناه . ثم انعكس والما اخر منقى صافيا استطاع القرن ليصبح نموذجا لواقع افضل .

ولا ينبغي ان يشحط بنا الخيال الى مزار بعيد . فنفهم ان الشعر الجاهلي هو النموذج الذي علينا ان نصوغ شعرناالان على مثاله . ومن هذا الفهم الخاطىء لطبيعة الشعر وعلاقته بتكوين الشاعر العقلي والخيالي . وارتباطه بالبيئة . حاول المعنيون رسم حدود للشعر لا ينبغي تجاوزها ولم يعلموا انهم بذلك قيدوا خطوات هذا الطفل الاسطوري الذي كان بامكانه الوصول الى معارج الكمال المطلق . وكانوا اوصياء بذلك موقوا حركة الشعر . والانجازات التي كانت تظهر بين الحين والحين في تاريخنا الشعري . كانت تمردا على قوانين الوصاية وتجاوزا لعقلية الاوصياء . وتحطيما للقضبان سجون سجنه بها الرسميون بعد نزول القران بقليل . وهذه القليل يتعدد ليصبح مائة ومائتين او اربعين سنة . اي منذ انتشار التدوين في بداية الحضارة الاسلامية .

لكننا ننظر الى القصيدة الجاهلية كمثل اعلى لحرية الشاعر في صوغ تجربته الشعرية . ومن ضمنها الادوات التي حملها احاسيسه وخطرات وجدانه .

الشاعر الجاهلي انسان الفى نفسه وحيدا في الصحراء . بين نجمة تبتسم له على خد السماء البعيد . وخيمة ترافقه في حله وترحاله . وناقة ينظر اليها كما ننظر اليوم الى طائرة نفاثة او قطار متقن الصنع والحركة . ووجد بين يديه حواء رفيقته وملهمته . ومستودع الجمال المحسوس الذي اضفى عليه الكثير من تطلعاته الذكية والمثلى .

وازاء وحدته بين ثنائية الارض والسماء كان عليه ان يفعل ويتكلم فماذا يقول ؟

سمع السيمفونية الطويلة المهمة الالحان . تعزفها قدرة لابد من وجودها . بعضها في بكاء الثيم وضربات الرعد الرعناء . وبعضها في عويل الرياح ذات المصدر الخافي البعيد ، وبعضها في حسيس النار الباهرة ، وبعضها في حفيف النسمة الباردة في جمود الصقيع المحرق . والبعض الاخر كان ينبع من طنين اذنيه وهو ينظر الى امواج السراب تهتز كاعمدة من ماء على مرمى البصر في الحر اللافح المحرق في ثغر الافق وكان لابد له من ان يتكلم .. فغنى .. مؤنسا وحدته . وتلذذ في الغناء وهو يبصر الناقة الامينة الذلول تنصت لهذا الغناء الشجي فاستمر . يصفها ويستوحي من خطواتها . اي ان الشاعر الجاهلي كان بينه وبين حيوانه واشيائه علاقة اخذ وعطاء ، وتفاعل في سبيل البقاء . ونظر الى حواء الملهمة التي انتصبت امامه رمزا لاستمرار الحياة . واكتشف تلك العلاقة الحميمة بين الارض والمراة من حيث هما سببا الوجود والتوالد والاستمرار . الارض تنبت له الكلا ، وحواء تنبت له الانسان فيبقى . فكل ما في المراة شهي ولذيذ وجميل . وكل ما في الارض شهي ولذيذ وجميل . فكانت حواء مدخله الى محراب الشعر وكانت الارض محرابا لهذا الشعر باحجارها . وكثبان رمالها ، ومسايلها وشعابها واسماء اثارها .. كانت الارض جسد القصيدة الجاهلية يطرح عليها انساننا الشاعر كل بضاعته . حتى خفقات قلبه . وكانت المراة المخلوق الشهي اللذيذ . باب الشعر الذي يفتحه برفق لدخول الهيكل . وتتنوع لدى شاعرنا الخالد عملية الدخول . فهي قبلة حينا ، ودمعة حينا . ولمحة من ذاكرته حينا اخر . وقد تكون رسما لاحدى لوحات الخيال البريء بين الحين والحين . اما جسد القصيدة الذي يمج بالنشاط فهو مستودع هائل تلك اللباقة التصويرية النادرة المثال . البارعة في التوالف المدهش بين توظيف اللغة لرفع المحسوس . وبين الاشياء الخام التي كانت تتشكل منها القصيدة الجاهلية .

واذا توصلنا الى ان اللغة هي المعادلة الطبيعية التي استطاع الانسان الجاهلي الحياة عن طريق حلها . نصل الى عدة نتائج هامة . منها او من اهمها ان الشعر ضرورة للانسان الجاهلي . مع تأكيدنا على ان الشعر رفيق الانسانية منذ اكتشاف خفقات القلب وخطرات الوجدان اينما وجد الانسان مما حدا بانسان كهامان ان يقول «الشعر هو اللغة الام للبشرية». لكنها ضرورة اكتشفها انساننا الجاهلي وعاشها ونما بها ونمت به دونما وصاية او اكراه .

المعـاناة :

الانسان الجاهلي ساثر . او قل هو يدور في مزالق الصحراء لا يكاد يستقر بمطرح . وقراءة واعية للاثار الشعرية الجاهلية تطلعنا على ان الرؤية الشعرية للجاهليين ، بما فيها من حركة ونمو هي ترجمة هذا الانسان الى شعر . الشعر لدى الجاهلي . هو الانسان الجاهلي نفسه . واذا وجد في هذا العصر من يصف الحضارة الجاهلية بانهاحضارةلغة.يحق لنا كخلفاء لذلك الانسان العظيم ان نفخر بهذه الخاصة ، لا ان نقللها بخطو ببطاوي ارعن ، بل توصلا الى ان الدفع الزاخر الذي حملته اللغة العربية قبل القرآن كان اصدق ظاهرة لابات الانسان العربي ذاته في مجال الحركة والتطوير وتوكيد نفسه في الوجود عن طريق اللغة ذاتها . حيث استطاع رسم وجهه الثاني في مجالي الفعل والاختيار . وكان الشعر عملا منفصلا حمله الجاهلي نسخة ثانية من كيانه . وحركة الانسان الدائبة في الصحراء عكستها لغته بشكل تصورها حركاتالاعراب نفسها . لا يبدأ كلام العربي بساكن ، لا يلتقي في اللغة ساكنان. معظم القصائد الجاهلية التي وصلتنا تبدأ بفعل . « قفا نبك » « صحا القلب .. » « ودع هريرة » « سائل معدا » .. الخ

معظم القصائد الجاهلية تبدأ هذه البدايات التي تتم عن الحركة ـ والمسير ـ والرغبة في الاستمرار وما تبقى من القصائد وهي قليلة ، لا تبدأ بفعل تبدأ باحرف استفهام . من ؟ لمن ؟ اين ؟ هل ؟ او تنبيه . الا . ا . او نداء . يا . ايا . ا .

ونتساءل بعد هذا الكشف عن احد جوانب التجربة الشعرية الجاهلية . هل جاءت الحركة الى مطلع القصيدة مصادفة دون اختيار من قبل الشاعر الجاهلي ؟ وهل كانت حواء التياحتلت مدخل التجربة الشعرية حلية او زخرفا في القصيدة ؟ وهل الهم الشاعر الجاهلي الدمن والاطلال في قصيدته بلا معنى ؟

ان الحركة . والمراة . والطلل كثالوث مقدس في الشعر الجاهلي ، يعكس لنا بشكل خفي وربما لم يتنبه له دارس او محقق حتى الان طبيعة المعاناة وتشخيص الصدق في العمل الفني الانساني الخالد .

ان الثالوث هذا ترجمة للفعل ـ والحب ـ والتعلق بالارض. كوجه خلفي او عمقي لشكل الانسان العربي الذي كشف ذاته في لغته ومنحها ما يريد ان تمنحه اياه الطبيعة من طول وعمق وحركة واستمرار . مما يدعونا الى التاكيد على ان الشعر الجاهلي كان معاناة من قبل الانسان لرسم انسانيته فيه . وعندما نصف هذا القدر الذي وصل الينا من شعر اسلافنا الخالدين . بانه ديوانهم . ومراة وجودهم . وحامل حركتهم والمعبر عن تواجدهم في هذه البقعة من العالم . علينا ان نضيف لكل ذلك ان الشعر الجاهلي بما حمل من فخر ذاتي ، وقوة انتماء قبلي ، ووصف حي للطبيعة والحياة ورسم دقيق لم ينس خطا واحدا من خطوط الحياة العربية في فترة ما من التاريخ . كان هو الانسان الجاهلي نفسه بمعاناته وتركيبته النفسي والفكري ـ ونزعة تطلعه ، او ملكة تشبثه في الحياة ومواجهة همومها . او بتعبير وجودي كان يختار مصيره وينقله بالشعر . واذا كانت كل « حقيقة لا تكون الا بفعل عاملين ، عامل البيئة وعامل اللاتاية الانسانية » كما قال سارتر فالشعر الجاهلي هو الاثر الاعظم الذي حمل في طياتهذه المعادلة بكل صدق . فنجد في لغته الجزلة المنسوجة على نول الجمال العبقري البالغ درج ذلك الانسان وموقفه من الحياة والاخرين متغلغلا في البيئة ، ومتغلغلة فيه البيئة كاكمل ما يكون التداخل والاعتناق والالتحام . حتى كان القارىء في كثير جدا من هذه القصائد لا يستطيع ان يسال عن مفردة لا لزوم لها في الشعر . اي انه شعر ليس فيه « حشو » تلك الخاصة التي انزلقت الى الشعر العربي فيما بعد وشوهت الكثير من معالمه وعندما ضاقت نصوص القوانين بتمدد الانسان وسعته .

كانت التجربة الشعرية الجاهلية كما نفهمها تجربة خاضها الانسان الجاهلي مختارا شكلها ، وارضها وخلفيتها وعمقها . فمن حيث اللغة كان الشاعر حرا في اختيار الفاظه، بما يتلاءم مع مستواه الفكري ، ومظاهر حياته وخصائص بيئته . ومن حيث الموسيقى فقد ظلت الفترة الزمنية التي وصل الينا جزء من نتاجها الشعري فترة مخاضات ايقاعية ، وولادات موسيقية لم تحصرها القوانين ، ولم تقيدها الاقيال ولم يخنقها الاوصياء والنقاد . كان الشاعر لا يهتم قافيته ويشدها او يمطها حتى تخضع للقالب « الاعرابي » وظهرت في الشعر الجاهلي الحركة المختلفة عن حركات السياق والتي سميت فيما بعد « بالاقواء » . وكان الشاعر الجاهلي يتحرر من دقات الايقاع الذي سحرنا بالضجيج الموسيقي الصاخب ويختار كلمات تظن انها حطمت وزن البيت ، كان حرا في اختيارها . لكن الاوصياء بعد العصر الجاهلي وجدوا لها وعاء خاصا اسموه « بالاشباع » . وكان الشاعر الجاهلي يخرج نهائيا عن الاوزان المالوفة لدى معاصريه وسابقيه . ويصنع لنفسه عطا شعريا تتخلق فيه الموسيقى بشكل نطلع عليه الان فنحسبه علينا بضربات وايقاعات غير متجانسة ، كما هي الحال في البحور العروضية السليمة . وهذه الظاهرة شملت شعرنا الجاهلي بشقيه ـ الرجز ـ والقصيد ـ . وابرز من هذا كله ان البيئة الجاهلية بكل ما فيها وذاتية الانسان الجاهلي بكل ما فيها ، كانتا ميدان الشعر الفسيح ومسرح تجارب الشاعر الخلاقة . لم يكن في الشعر الجاهلي غزل . وفخر . وهجاء . ونسيب . ووصف . والى هذه المرفقات التي حبل النقاد زمنه طويلا ونمخضت عنها ارحامهم الفارغة . كل هذه الخصائص كانت دفعة واحدة بالقصيدة الجاهلية . البكاء على الاطلال كان واقعا ملموسا ولم يكن زخرفا جماليا في الشعر ، المطلع الغزلي كان الشحنة الاولى التي تتفجر من ورائها مخزونات النفس الشاعرة. الرحيل على الناقة والجمل ، والصيد والرعي .ونصبالخيام. وصليل السيوف وكرع الخمر والانتماء القبلي . والاشارة بعظمة القبيلة . كانت هذه المظاهر التي عرفناها ميدانا للشعر . كانت جزءا او اجزاء من صميم تكوين الانسان الجاهلي وقراءة المعلقات فقط كعنصر بارز من عناصر هذا الشعر مع الاطلاع المبدئي على حياة اصحابها ، تقدم لنا الدليل على ان الشاعر الجاهلي لم يكن زائفا في انتقاء مسرحه الشعري وقاموسه وجوه الموسيقى ، بقدر ما كان ممارسا لهذا الانتقاء . وحرا في ممارسته وقد يسال سائل ونحن نتعمق جذور الكمال في الشعر الجاهلي سؤالين لا انكر انهما طرحا في معظم الدراسات التي تناولت هذا الشعر العظيم . وقد مرا بذهني منذ عشرين

سنة ، عندما كنت اقرأ الشعر الجاهلي . واراه اللاحقين به من عرب ومستشرقين . وهذان السؤالان هما .

١ ـ اين وحدة العمل الشعري في القصيدة الجاهلية ؟

٢ ـ لماذا طغى عنصر الوصف على هذا الشعر حتى كاد يستهلكه؟

ولا اظن مبدئيا ان السؤالين خطرا للشاعر الجاهلي نفسه. اي اننا نسألهما من خلال احساسنا بقيمة الشعر وتنوعه واتساع حدوده وآفاقه . ونحن في القرن العشرين . بزمان غير الزمان . ومكان ان لم يكن قد تغير فلا شك انه طرأ عليه الكثير من التعديل والتبديل .

وبالتالي هل من المنطق ان نسأل الشاعر الجاهلي ان يكون ترجمانا امينا للذاتية الانسان في القرن العشرين ؟ بل المنطق ان نعيش قدرة ذلك الانسان وتكوينه العقلي ، ثم نعكف على دراسة منجزاته فان تفوق الانجاز على امكانية متاحة للمنجز نقول على الفور انه تجاوز عصره . وان تفوقت امكاناته المتاحة على حجم ونووع انجازه انهمناه على الاقل بالقصور والجمود . وهذا ما لا يوافق مفكر او مثقف على الصاقه بانساننا العربي الجاهلي الشاعر .

قلت في سطور سابقة ان الحركة الناتجة عن سرعة التنقل هي التي طبعت الجاهليين بطابعها . وانعكست هذه الحركة على لغته وشعره فكلامه يبدأ بمتحرك كانما اللغة تتململ .. تنطلق في رحاب العالم غير المنظور تكتشفه . وشعره في الغالب يبدأ بالفعل الذي يعبر عن تلك الحركة . واسبغ هذه الخاصة نفسها على كل ظاهرة تبرز له في ثنايا رحلته الحياتية المعطاء . اسبغ على كثير من الاسماء صفات تحول هذه الاشياء الى اساطير .. الى شحنات تتفجر طاقات الشعر منها جميعا . حتى كفاحه من اجل البقاء كان ـ سيرا ـ فتحا ـ تحركا ـ تموجا في وديان الحياة . ارايته بعد نزول القرآن مباشرة كيف انزرع في رحاب العالم من شرقه الى غربه ومن شماله الى جنوبه ؟ وكانه المارد تفجر عنه القمقم ليملأ الحياة البشرية بالعطاءات والهبات وتاكيد الذات في الارض ؟ اما قرأت تاريخ هذا النفر الطاهر في الفتوحات العربية في القادسية ، في دمشق ، في حمص، في اسبانية في مصر في افريقيا ، في فارس ، في الهند ؟ الم تحس بان هذا العربي المسافر في خياله وعينيه وقدميه ويديه وشعره .. اراد ان يتجاوز الكوكب . الارض ، الى سدرة المنتهى ، ودوحات عليين لدى الملأ الاعلى ؟ الم تر الفاتحي الذي هجم على البحر بجواهر مهره يود ان يتقحمه ؟ لن استرسل في ضرب الامثلة لانها كثيرة .. وجزء منها ينبثك اليقين . ولماذا نريد ـ الآن ـ ونحن نقرأ التاريخ والادب والفلسفة وعلم النفس، وشذرات من العلم المنظور ان نقيم الجاهلين بنفسية انساننا المعاصر القلقة التي ازدحمت في ظلماتها من الثقافات والعلوم ، ونطالب شاعرنا الجاهلي بان يكتب قصيدة وحدة البناء الذي ـ اصبحنا الآن نفهمه ـ واذا ما تهدم بيت منها تنهار كما لو كانت حائطا منسوجا ؟

في واقع الامر ان القصيدة الجاهلية لم تعتمد البناء الكلي المتسق للعمل الفني بحيث لا تخلخلها الزيادة والانتقصان. ولكن طبيعة البيئة الجاهلية المتحركة السائرة . والتي كانت التجربة الشعرية نقلا « مثاليا » لها فرضت على الانسان الجاهلي النسق الشعري الخاص ، محمولا في شحنة وجدانية تظل وتتسبب قطعا قطعا كانها جمال القافلة او خراف القطيع اسميت كل شحنة منها بيتا ولم تكن القافية الرنانة الا الخيط الذي يربط البيت والبيت . وكان من اختيارات الجاهلي لفنه ـ وربما عن تصميم وتصور مسبقين ـ ان تكون كل شحنة شعرية مستقلة ببنائها المحكم المتقن . بحيث اذا ضاع من القافلة جمل لا تضيع القافلة ، واذا ضاع من القطيع حمل لا يضيع القطيع ولكن ابتعد بهذا التحليل عن تلك البيئة الجاهلية نفسها ، قلت القافلة ، وقلت القطيع . كظاهرتين من تلك البيئة . تتوافر فيهما ـ الحركة ـ واسرار البقاء ـ .

وقراءة متانية للقصائد الجياد الجاهليات ترينا ان الابيات لو زادت او نقصت تظل بين ايدينا روح الشاعر وجو القصيدة العام ، وقسط وفير من الخصائص الفنية السامية التي عانى شاعرنا الجاهلي وجاهد في سبيل خلقها .

اضيف الى هذا التحليل ملاحظة لم يشر اليها قط دارس لهذا الشعر خلال مئات السنين الماضيات بمن فيهم نقادنا المعاصرون الذي منحوا هذا الشعر حياة جديدة من خلال قراءته وتعريفنا به . هي فقدان النهاية من العمل الشعري الجاهلي . وحيث ينتهي الشاعر الجاهلي من انشاد قصيدته يدفعنا لنتساءل . وبعد ؟ . القصيدة ذات مطلع بالتاكيد . حتم عليه الشاعر ان يكون مدخلا الى محراب شعره . واما من بين آثار مضاربِ خيامها واطلال اهليها . ولكن الباب الثاني لهذا المحراب المقدس يظل مفتوحا على مصراعيه ، حتى لتحس بان الشاعر الجاهلي عائد اليك يستانف رحيله الشعري مرة اخرى ، فهل نضيف هذه الخصيصة الى طبيعة الحركة ؟ طبيعة الرحيل ؟ طبيعة السير الذي اراده الجاهلي لنفسه ؟ وان شاعرنا ما دام ينقل لنا وجودها شعرا يريد لهذا الوجود ان يستمر . وانه لا يريد ابدا ان يضع الخاتمة لعمله الشعري ؟ من يدري ربما يكون ذلك تعبيرا من اختياره وحريته . وسمة خاصة في شعره العظيم .

ثم لماذا طغى الوصف على تجربة الشعر الجاهلي ، اليس هذا هو السؤال الثاني الذي طرحناه ؟ اجل . قلت ان الانسان الجاهلي يسير وكل ما بين يديه من مقومات حياته مسافر . سد مأرب التاريخي الذي كان سببا لبناء حضارة عظيمة من حضارات الامم . هو الآخر سار . الحبيبة تنزلق من امام ناظريه . ولا يراها الا محمولة في هودج على ناقة في قافلة تبحث عن الكلأ .. حامل اكسير الحياة . في خضرته الزاهية ، البيوت التي يتبطنها .. هربا من حرارة الشمس الحارقة ، وصقيع الشتاء القالح .. وبها يلوذ الى نفسه بين الحين والحين . هي الاخرى تسير .. ترحل .. تنتقل مع القبيلة او مع فخذ من افخاذها . الخرفان تركض .. وعيون الماعز الزئبقية تنفض غشاء الصمت والسكون ، وتسير هي الاخرى . الظباء التي طالما سرق منها العين الساحرة واللفتة الباهرة ، والخطوة الراقصة .. هي الاخرى لا تقف قط امام عينيه في مكان ما . وحياته اذن رحلة .. مسير لا وقفة بعده . ترحل مستمر منذ كان جنينا حتى يستل عنقه سيف او يغتاله الموت في ساعة غفلة .

اما كان ذلك الانسان بحن لاستجماع اشياء لا تستقر بها ارض ولا ينعم بها نظر طويلا . في ذاكرته على الاقل . في وجدانه المرهف وفي فؤاده الذكي . بالتاكيد ما دام وجد السبيل الى ذلك متاحا له في كشفه السحري الباهر المتسع المدهش ، الشعر .

الشاعر الجاهلي رسام . لم تسعفه العين المجردة على رسم صوره فاستعان بعين خياله . لينفذ منهما شعاع سحري

انيق . يحيل حياته الى لوحة بارعة لها مطلع وليس لهـا نهاية . ذات الوان ليس قوس قزح احلى ، وذات حياة ليست الطبيعة اكمل . حسناء عذراء . نحتت من مقالع الضوء في ساعات الصفاء الملهم ، عليها ثياب من سندس ، واستبرق يطوف بها ولدان مخلدون .

الانسان الجاهلي شاعر عانى الحياة رحلة بلا توقف . هو على صهوة جواده الذي احبه . وكان له صديقا وفيا . فاقسم ان يخلده ومنحه الكثير . وامامه ناقته الـذلول . وبعيره السفينة ، يتهدجان على شوك البادية او رمال الصحراء. اليسا صديقيه في رحلته ؟ ويعر قلبي فقد اقرانه . اللهفة ملء فؤاده . والحنان ملء نظراته . والبحث عن امه او حبيبته ، شنقه في اشرئباب عنق اتلع لن ينحني .. اليس جديرا بهذا الشاعر ان يلتقط له صورا عديدة في طريقه ، يعيد النظر فيها ويمنحها بالشعر حياة اخرى ؟ كان الشاعر الجاهلي في رحلته الشعرية ، سابحا فوق المحسوسات والموصوفات يحط حينـا ويحلق حينا . يختطف مشهدا خطف الطائر شربته انا ، ويقف وقفات قصارا ليتحصى المشهد الذي ينقله انا آخر ، ويلح بين الحين والحين على التعمق في خطوط المشهد وجزئياته . حتى اذا نقله وفوده بين يدي حبيبته الملهمة لا يترك لها مجالا لسؤال عن جزء من اجزائه .

كانت الصورة في قصيدة صورتين ، صورة المشبه ، وصورة المشبه به . وكثيرا ما كان يمحو الفرق الزماني والمكاني بين المشبه به ليحتل الاثنان حيزين متكافئين في قصيدته . مضيفا عليهما لمسات من روحه الشفافة وخياله ـ الخالي من التعقيد ـ وقليلا ما كان يلجا الى تصوير غير المرئي . لكان ذاكرته في رحلته كانت وعاء حشرت فيه اشتات من الصور .. ولم يبق فيها مكان الا لما يوحيه قلب العاشق ، وتصور الفارس لباسه وشجاعته وكرمه وعفته وحفاظه على فضائله المثلى بالنسبة الى مجتمعه القبلـي .

وكثيرا ما كانت صور الشاعر الجاهلي ملتصقة بذكرياته الماضية قريبها وبعيدها . واثناء التصوير يعن له ان يسرد قصة من قصصه الماضية . كرحلة صيد ، او رحلة حرب . او مغامرة مع الانسان المعبود حواء الخالدة .

الوصف اذن من طبيعة التركيب الاصيل للتجربة الشعرية في الصحراء . كانت الصورة في القصيدة المفاعل الشعريالذي يحفظ توازنها . ويركز اجزاءها من جهة . وعن طريق الوصف كان الانسان الجاهلي يؤكد وجوده كناقل ومضيف ورابط بين الترحل بالحبل الشعري المدهش الريشة والنوحات .

ان احساسا ساحرا اخاذا كان يلاحق الانسان الشاعر في تلك الفترة من تاريخه ان يحتفظ باكبر قدر من الصـور في محرابه الشعري العبق الموشى بزخرف الجمال والبراءة . وهو لهذا ماض على شيء راه في رحلته دونما احتفاظ بتوثيقه . من عزيف الجن في الصحراء الناتج عن اشتباك الريح بالرمل . حتى رسم الصورة الدقيقة لدبيب النمل في مفاصله بعـد احتساء الخمر . وشكل الحياة المتزلقة امامه بكل ما فيها . حتى جبال الرمال التي يراها في بعض مناطق الجزيرة العربية. كانت تتحرك متزلقة من مكانها . هو الذي املى عليه ان يكون المصور البارع الانامل . والدقيق الخطوط . والقوي الملاحظة. لكانه بمجموع ملكاته . عين ترى . وريشة ترسم . ليخـرج عن هذا التلاحم البصري اللمي ضجيج موسيقى يكتمل كل يوم بل لدى كل شاعر .
مغرقا فيه لذاته الهادئة الخالية من العقد .

الواقع والفن :

الاكتفاء بالقول ، ان الشاعر الجاهلي رسام مدهش ، لا يفي ذلك الانسان الفنان حقه من الوصف . وان هو كفـاه فسيظل سؤال يلح علينا ، وقد ظل موضع اخذ ورد بين النقاد العالميين حول الادب الكلاسيكي . هو : هل الشاعر رسام فقط ؟ اذا كان الامر كذلك فهو لم يشعر حتى وان نقل خطرات الوجدان من حزن وفرح وتطلع وتذكر ، لان النقل الامين لما في الطبيعة هو احد جوانب العمل الفني . وتظل هناك رؤية الفنان نفسه . وتدخله في صنع الطبيعة كشريك صانع في عمليةاكتمالهاوتطويرها، اليس كذلك ؟

وقراءة الشعر الجاهلي الدقيقة المتانية تطلعنا على اكثر من وجه مشرق لهذا الفن الخالد . من هذه الوجوه تنميه الحركة الطبيعية الموصوفة في التكوين الموسيقي الذي فتح ابوابـه الشعراء الجاهليون ، وتركوا الشعر العربي منذ نزول القرآن حتى منتصف القرن العشرين عالة عليهم . وعلى كشوفهم المهمة. ومن هذه الوجوه نحت الظواهر الموصوفة وتهذيبها ونقلها الى الشعر كما يتمنى الشاعر لا كما هي في موضعها من الواقع . ومن هذه الوجوه رفع حواء عن مرتبة المخلوق البشري القائم على اساس الوظائف العضوية الى جعلها نموذجا مثاليا للجمال الانثوي المشتهى . ولم تكن المراة في الشعر الجاهلي الا هذا المثال .

من هنا نرى ، ومن خلال نصوص الشـعر الجاهلي ان الاشياء التي احبها الشاعر احببناها نحن بمجرد عرضها على الاذن او العين بعد تلك القرون الطوال التي تعاقبت علىوجود هذا الشعر . فمن منا لا يحب الكرم ؟ ومن منا لم يمر الخمـر بباله ـ حتى ان لم يشربه ـ ومن منا لم يتمن رؤية الظباء وهي تسبح على رمال البيد ؟ ومن منا لم تعجبه تلك المنـاقب والخصائص التي حملها الشاعر للجواد ؟ ومن هو الانسان الذي قرا شعر الصعاليك ولم يحب عروة بن الورد مثلا ؟ مع العلم بان جانبا من حياة الصعاليك وسلوكهم كان شـرا كله . ان الشاعر الجاهلي حدثنا عن احجار الموقد فاحببناها . وارتسمت في اذهاننا دون ان نراها . وحدثنا عن ركوب الابل وامتطـاء الجياد ، فالفينا بانفسنا حنينا مسرفا الى ممارسة ولو للحظات تلك الحياة على سذاجتها وبداوتها وخشونتها المسرفة.. الا ترى معي ان السيف . المهند . الفيصل . العضب . الحسام . عندما نستخدمها الآن في شعرنا ونثرنا جميعا نستشعر امامها العمق التاريخي والشحنة الشاعرية التي اكتسبتها من خلال مرورها في ذاكرة الانسان العربي جيلا بعد جيل ؟ وهي مرتاد نرتاده في كل استخدام فكري او فني كاحدى خلايا الرمزية اللغوية في ادبنا . نتكلم كثيرا عن السيف ونحن في عصر الذرة . اترانا نقصد السيف الذي رسمه الجاهلي كاداة للقتل ، او هو رمز خصب في ذاكرتنا الجماعية . ينبهنا فورا الى الشجاعة . الاقـدام . الحفاظ على البقاء . الانتقام . هذه صورة واحدة كانت لهـا وجوه وخطوط في المحراب الشعري الجاهلي . واذا تركنـا الاشياء التي لا تزال تشارك الشاعر الجاهلي في استخدامها من الكلمات المالوفة في اللغة . نرانا منشدين تلقائيا الى صور لا تربطنا بها رابطة من حيث ممارسة الحياة . واصبحت لدينا رموزا شعرية او اساطير شعرية . كلما زاد استخدامها اتسعت اعماقها وتمددت ابعادها . لقد ظل الشاعر الجاهلي بمغامرتـه الشعرية مولدا شعريا يمدنا بالطاقة والحركة . حتى ونحن مبتعدون جدا عن طريقة نظمه . وعن قاموسه الشعري . واذا

ابتعدنا عن صور الشاعر التي امدتنا بها المعين نجد ان حياة نفر من هؤلاء الشعراء وحكايا مقتلهم او معاركهم . عنترة . امرؤ القيس . طرفة . الخنساء . لبيد . الاعشى . مسعود الحكماء . النابغة ... نجد ان حيواتهم . او سلوكياتهم . غدت ذخيرة للرمز في ادبنا . كلما اغرقنا بالرحيل الى المستقبل ، تبدت لنا منها اساطير ملهمة ورموز شعرية .

اما حواء فطالما الهمت وفعلت وتفاعلت . واثرت في هذا الشعر العظيم . ان قارىء الجاهليين لا يزال يحتفظ باسماء لحواء ان تذكرها فرموزا . ولن استخدمها فرموزا . وما كان الا من خلال التعاطف والحب . فكافة الهندسات النسوية التي خلقها الجاهليون حبيبة الى قلوبنا .

انتساءل لم كان هذا كله ؟

الجاهلي ـ الا في القليل النادر ـ لم تكن حواء بين يديه الا ملكا كريما في محراب الشعر . ولم يتناولها في ريشته الساحرة الشاعرة كما هي فقط . المراة لديه ملاذ . وبداية رحلة . وحضن دافىء ، وصنم مرمري مقدس ، واله ملهم . ومحاور ومستفهم . ومستودع ذكريات . ورسم كل شيء بالمراة ابعد من عمقه ، واظهر من وضعه . واكثر شفافية من سماكته . لم يصور لنا الجاهليون امراة شرسة نكدة . ولم يوصلوها الى جناح الشعر مثقلة بوظائفها العضوية ـ الا في حالات الهجاء القليلة ـ . وفي الغالب الاعم كانت مولدا شعريا لشاعرنا الفارس النبيل . ترحالها يلهمه ، ونظرتها تنطقه ، وهجرانها يفرد له المغلق من سراديب ذكرياته ، وهي بعيدة جدا عن تكوين الانسان البيولوجي ، فهل قرانا لشاعر جاهلي دون ان نحتفظ بهذه الصورة . ان المراة وهي ناتمة تنشر المسك والزعفران وكافة اصناف الطيوب . وان الانثى الجاهلية دائما عطرة ينضح من فمها الطيب . ودائما جميلة وضاجرة وفتانة لكان الشاعر البسها خلالة مسحورة لا يريد ان يراها الا من خلالها . وكان خياله الرسام يمده بالكثير من الصور الخلابة المتدفقة بالسحر والجمال والصفاء والطهر . فالرسوم الطبيعية المنتزعة من البيئة الجاهلية ، والتي رصف بها جسد حواء وجوارحها ، كانت كلها شهية الطعم ، لذيذة المذاق ، محببة الى النفس ، لونا وشكلا وشذى .

عنق المراة كجيد الغزال وشفتاها كاوراق الورد . وعيناها كعيني البقرة الوحشية . تجمع بين سواد الليل ونقاء الفجر بسمتها تغريك دائما باستجداء اللذة . وحديثها يوحي اليك بطعم فمها العسلي واسنانها كاوراق الاقحوان . وشعرها جدول من جداول الليل يتيه المشط فيه . ونهداها جامدان متماسكان دائما . وبطنها قطعة من نسيج فضي املس . وهي دقيقة الخصر ابدا . حتى لكانها قطعتان التحمتا بعنق دقيق . وكان يخشى المشاعر عليها من ان تتقصف اثناء المسير . ولرقتها لا تكاد تلامس قدماها الارض بل تكاد ترقص كالخجال . ويرق فارس كاهرىء القيس فيدعي ان النملة الصغيرة لو سارت على بشرتها لاذتها او جرحتها . واخشن ما عليها ان تستر به هذا الجمال للبالغ وهذه الرقة المفرطة ، الخز . اما السوار والدملج والقرط فقد بثها الشاعر الروح ونفخ فيها فاذا هي تتحسس مواضع الجمال من هذا الجسد المثير . واذا اعتصر الشاعر ثوبا لامس جسمها تقطر منه المسك والكافور والطيب . والثغر المكوكد الذي تفرزه جوارح المراة هو دمعها . ولم يبخل المشاعر على هذا الاثر فاكسبه الكثير من الرونق .

والمراة لا تبرح ذهن الشاعر الجاهلي . ولا تفارق خياله .

واننا نحس الان ان الجاهلي كان ينظر الى هذا المخلوق الساحر ـ المراة ـ نظرة فيها الكثير من التقديس والتاليه والعطاء والخير . فهو اذا فرد ذكريات الامس يدخل حتى الى ذاكراته من خلال حواء ، واثار اقدامها وصورة هو دجها ، ووسوسة حليها ، ومن وراء نظراتها الذابلة الهادئة . وكان التجربة الشعرية الجاهلية مرتبطة بالتكوين الانثوي الذي يذكر شاعرنا الجاهلي بسر مغلق من اسرار التوالد والبقاء . وعنصر الانوثة كان لديه او في غمرة شاعريته الفياضة للاديب الذي يتدفق منه جدول الشعر الطيفي التركيب . وتركيزنا على هذه الخاصة جاء من الالتحام الوثيق الذي كان بين القصيدة وبين حواء . فدريد بن الصمة يرثي اخاه متوجعا متفجعا ولكنه يصل الى احزانه من خلال « ام معبد » . وزهير بن ابي سلمى ينشر حكمه التي حملت مثالية المجتمع الجاهلي . ويطرق باب الحكمة في معلقته بيد « ام اوفى » وقيس بن الخطيم يسرد تاريخ حرب بين الاوس والخزرج اسرتي المدينة ، وهي الحرب المعروفة بيوم حاطب . وقبل وصوله الى صليل السيوف وقراع الكتائب والجيش الذي رآه موجا آتيا متراكبا ، وقبل الفخر في ذاته التي تقدم طائعة على السلم والحرب والحياة والموت جميعا . قبل كل ذلك يتقدم من بين يدي الحبيبة التي عرفها صغيرة غرا ذات ذوائب ، الى ان نمت ورآها تحج وتنشر الفتنة في البيت الحرام. وليس هذا فقط انما هي من الرقة والرهافة والوضاءة بحيث لو بدا نصف وجهها فقط ، تبدت تقيس كنصف الشمس . ونصفها الثاني تغشته سحابة . انظر اين المراة لدى ابن الخطيم ـ الشمس ـ الغيم ـ البيت الحرام ـ مني ـ اترى هل اختار هذه الظواهر مجازفة وقذف بها المراة ؟

على انه لا ينبغي ان يذهب بنا الظن الى اعتبار كل الشعر الجاهلي يتميز بهذه الخصائص الجمالية الباهرة . وجزء غير قليل من هذا الشعر لا يحمل من رونق التعبير ، وحسن المداخل ، ورواء التصوير ، ودقة التشبيه . واصابة النفس . وهناك مقطعات سردية مسطحة لا تصوير فيها ولا فن . وليست اكثر من مجرد كلام موقع على اعاريض الشعر . ويقع هذا الجانب ضمن الاراجيز . ثم في بعض المقطعات القصيرة التي نحس بارتجالها وطفوها على سطح الشعر . وكذلك نجد بعض الابيات تقع تحت هذا الصنف في القصائد الطوال الجياد . لكانها اقحمت اقحاما على العمل الفني . ومن يدري ان يكون من طبيعة النبت الطيب الكريم ، اتاحة الفرصة للاعشاب الخالية من نكهة الارض وبهاء السماء ان تنمو حوله ؟ وتحدثنا عن محراب الشعر الذي تحتل حواء مدخله ، باثر خلفته ، ونظرة اصابت بها ذاكرة الشاعر ، وهودج رآه يتمايل من بعيد مخلفا لديه الحسرة والاسى . وكثير من القصائد الجاهلية وصلتنا ناقصة المطالع ، ولم يعد يخفى على عربي مدى ما تعرض له الشعر الجاهلي من نسيان وضياع وحذف وانتحال . ولا ادل على ذلك من وجود قصائد يتيمة في كتب الادب القديم ، وابيات مفردة . واسماء بلا شعر . وتعرفنا ـ عن طريق التذوق ـ بين الجيد من هذا الشعر العظيم الذي حمل بين طياته مغامرة التجربة ، وصدق المعاناة ، وحرارة الجهد المبذول وبين قليله الذي يعتمد على الود اللغوي . هذه التفرقة تؤكد لنا ما كان يبذله اسلافنا الجاهليون من جهد وحرارة وداب وسهر على اخراج هذه الروائع الخالدة . فمنهم من نوه بالجهد والسهر كما فعل زهير واصحابه . ومنهم من لم ينوه به . بل يشا اطلاع الجماهير على اسرار التكوين ، والمولدات الجنينية سواء كانت على الجلود والعظام او على دفتر الذاكرة .

ومن هذه الناحية نراني وبكل جرأة ارفض الرفض المطلق المدارس الشعرية في العصر الجاهلي ، واستبدالها بالافراد الشعراء ، ولكل واحد من اولئك الخالدين كان له نهجه الشخصي الخاص في معاناته الشعرية . دون ان ينفصل عن بيئته التي طالما احبها واوجد لها الفضائل والاستمرار .

والمعاناة . والجهد المبذول في اخراج تلك الروائع، يدفعاني وعلى استحياء وخجل ان الف مشدوها مبهوتا امام الورطة الرهيبة التي تورط بها الجاحظ . المفكر المثقف المجدد ، عندما اعتبر ان كل شيء للعرب بديهة وارتجالا ـ بما في ذلك الشعر ـ ولم يكلف نفسه عناء البحث والتمحيص في اعماق العصر الجاهلي فاعتبر ان الشعر « حديث الميلاد صغير السن . اول من نهج سبيله وسهل الطريق اليه امرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة ... » وهذه الاقوال التي ارتجلها الجاحظ لا تستقيم بالتاكيد مع طبيعة الشعر كفن صعب . ولا مع طبيعة الفن من حيث نشاته وتطوراته والمراحل التي مر بها حتى وصل الى هذه الدرجة المدهشة عند من قرانا لهم من فحول الشعر الجاهلي ـ المتاخرين ـ زمنيا .

متى توقفت التجربة الجاهلية ؟

ترى من هو الانسان الفنان ، الذي نستطيع اعتباره خاتمة الشعراء الجاهليين ؟ مدارات الزمن الغابر ؟ والى متى استمرت التجربة الشعرية الجاهلية في النمو . وكيف حدث التحول ؟

انطلق على الفترة الزمنية التي سبقت نزول القرآن . والتي تضرب عمقا الى حدود المئتي سنة بالعصر الجاهلي . واما الفترة التي قبلها فهي فترة غامضة لم يخلف لنا اهلها شيئا من شعرهم او ان الرواية في الشعر العربي تقف عندها فقط . ونعلم ان الانسان العربي الذي عاصر هذه الفترة الممتدة من نزول القرآن وانتشاره الى ما قبل القرن السادس للميلاد . كان يتمتع بخصائص معينة يتقارب فيها ابن الجزيرة ، وابن الشام وابن العراق . وهي البيئات التي انتشر الشعر فيها ، او هي البيئات التي كانت مسرحا لتجربتنا الشعرية الناضجة . من هذه الخصائص اعتداد الانسان بذاته . زهده عن شرفه . حبه للضيف . كرمه . حبه للمراة واعتبارها مخلوقا غامضا ـ كما راينا في شعره ـ تزجية وقته بين الرعي والصيد وشرب الخمر . الاسراف في الحب . الاسراف في الكره ، الخاصتان اللتان نتج عنهما في كثير من الاحيان حساسية متحفزة تتزلق الى السفه والطيش . وفخره في الموت قصدا على اسنة الرماح .

ونلاحظ ان كل هذه الخصائص انعكست بشكل ـ مثالي ـ في شعره الجيد . حتى ليستطيع قارىء هذا الشعر ان يرسم صورة دقيقة واضحة لذلك الانسان من خلال اثره الادبي الذي طالما اعتز به ومنحه الكثير من ذاته .

فقارىء شعر الصعاليك لا تغيب عن ادراكه صورة الصعلوك الذي اطلع على التوزيع السيء للثروة الجاهلية . فثار وتمرد وضاع هدفه النبيل امام سرعة غضبه واختلاط الامور عليه فانقلب الى لص بعد قليلا او كثر عن غايته الانسانية السامية .

وقارىء شعر طرفة ، ينهض امام بصره ذلك الانسان المتمرد اللامبالي واللامنتمي . والذي ادرك عبثية الحياة فعكف على شرب الخمر . ومعاقرة اللذة بين ذراعي المراة . ووجد لعبة وجود المجهول في المقامرة من طريق القداح .

وقارىء شعر عنترة يلمس روح الانسان الشفافة . وعاطفته النبيلة وهفته المتعالية . وحبه الذي لا حدود له . وشجاعته التي تفوق الاساطير . وقارىء شعر اي واحد من هؤلاء. النابغة. زهير. الاعشى . لبيد . يرى بوضوح مجموعة من القيم حرص الشاعر العربي الجاهلي على تنميتها وصقلها ورفعها الى مدارج الكمال . حتى خاصة القوة ، فلسفها زهير في معلقته الى جانب ايمانه بالسماحة . والكرم . والحب . والاستسلام للقدر المجهول .

اذن هؤلاء وغيرهم كثير . خلفوا لنا قيما كانت برايهم هي الانسان الفاضل في العالم . ولو قمنا بتلخيصها او بايجاد مفردات لها لكانت او كان معظمها على الشكل التالي .

الكرم ـ التسامح ـ البحث عن اللذة ـ الاخذ بالثار ـ حب القتال ـ تفضيل الموت قتلا ـ عدم الايمان بالبعث ـ الشجاعة ـ النجدة ـ الاحساس بالرحيل ـ

وكل هذه الخصائص استخلصناها من الشعر نفسه . وهنا نسال اين يقف او ينتهي الانسان الشاعر الذي الح على ابرز هذه الخصائص وتنميتها ؟ والجواب بالجزم عندما تتوقف في شعره . او تمحى لتحل محلها قيم اخرى جديدة او بمعنى ادق عندما يعثر على فلسفة خاصة في الحياة ، فتتحول مفاهيمه بشكل جذري .

اما اذا استمر بتنميتها وتهذيبها وابرازها كمثل اعلى للانسان المتكامل ، فليس ما يدفعنا على الاطلاق الى اعتباره توقف او نضب .

نهض محمد «ص» في اعماق الجزيرة العربية وبين يديه قيم تختلف كثيرا عما الف الانسان الجاهلي ، من ابرزها ، تعزيق التشكيل القبلي . تحطيم الشخصية المفردة . وهاتان الخاصتان كانتا جزءين هامين في وجود المجتمع الجاهلي. وكان عليه من جهة اخرى ان يضيف الى كيانه قيما جديدة كل الجدة . ولان انشاء الكيان الانساني لم يكن يتم بهذه السهولة وهذا اليسر ، كان من الطبيعي والمالوف ان يظل الانسان العربي متعلقا بانسانه الماضي لصيقا به مهما حاول الفكاك من اسره والتخلص من ربقته .

والايات الاولى المكية . كانت بمثابة ناقوس الخطر المرعب الذي اعقبه الصراع العنيف بين انسانين انسان يؤمن بعالم الروح ، وتفتح على فضائل انسانية كريمة . وانسان يدور في فلك القبيلة وحول محور الذات . ولم يكن الشعر بعيدا عن تلك المعركة الحاسمة في تجذير الانسان وتغييره. ـ الانسان العربي بوجه خاص . الذي عنى بهذا الشعر ونماه ـ .

القرآن كتاب جديد . ولغة جديدة . وفكر جديد تتدفق البلاغة من آياته كانها الامواج . قرا الانسان الجاهلي بعضه ورسم صورتين التنين له . صورة شعر لم يالفه . وصورة من صور البلاغة الشاهقة . انت على بنائه البلاغي فاسى قزما . وعليه ان يختار وكيف يختار ؟ هل يتخلى عن الشعر ؟ وهل تظل للشعر قيمته ويظل له كيانه الشامخ بعد « طه .. ما انزلنا عليك القرآن لتشقى » ؟ ودون في مسامع الانسان الجاهلي صور لم يكن قد الفها لا في قلب الصحراء ولا بين سلاسل الجبال . وهضاب الارض من حول الجزيرة . صور عن عالم اسمه : الجنة تجري من تحتها الانهار . وسرح بخياله في هذا العالم المنقى المصفى . ليرى فيه حواء اكثر صفاء مما رسمها ، وآدم حسنا مما صورها . واحب اليه مما ارادها او الفها . سمع بالخيرات الحسان . حور : مقصورات في الخيام . وسمع كلاما كانه البرق

يعصف به يستحثه ليرى اناسا آمنوا بالاخرة . وحق الوعد . ونالوا ما املوا . وراهم متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان . في جنة ذات فاكهة ونخل ورمان . سمعوا باللؤلؤ والمرجان. وانهار من عسل مصفى . وكائنات اجسامها من نور . ودنيا من العذاب فيها ماء من يحموم . وشجر من زقوم . ومرت امامه صور من الاقوام غابرة ، وحضارات دائرة . وعصور دائرة . وسمع قصصا مفصلا عن عدد لا يحصى من الانبياء . واذا به في عالم كانه الحلم يعصف به عصفا .

وتتصدع الابنية الجاهلية التي آلرها واحبها وصرف لها بناده الشعري كله . ويتصدع بهذا التصدع الشعر انذاك الى اقسام . او قل ينقسم الشعراء انذاك الى اقسام .

اما قسم منهم فظلوا على ما هم عليه يطورون الشعرضمن خصائصه الاولى . ولقد امتد الشعر بين ايديهم الى ان تهانتشار الفكر الاسلامي وغرس تياره في الانسان الجديد . مضافا اليه الثقافات الانسانية الكبرى التي ترعرعت من جديد في غير اوطانها . من فارسية ويونانية ورومانية . وهندية . ونعلم انها لم تنصب فجاة في الارض العربية ، وقسم من الشعراء استجابوا بسرعة مذهلة للفكر الاسلامي الجديد وكانت قراءتهم للقرآن . وصحبتهم لمحمد «ص» بمثابة شرارات حركت تلك الطاقات المكنوزة في اعماقهم والتي تمثل على استجابة الانسان العربي للتجديد والتطوير . وحبه للانطلاق الفكري . وهذا ما ابتته الانفجارات الفكرية التي رافقت العصر العباسي .

وقسم منهم استجاب للدعوة دون ان يدخل شعره معركتها. وهذا ما نخالف فيه معظم الذين ارخوا لادبنا .

وقسم رابع اقام بينه وبين الشعر سدا . واختار موقف التخلي عن هذا الطفل الاسطوري . ليتفرغ نهائيا الى اللوبان في ماء القرآن وفصاحة محمد .

ولاني ما قصدت التاريخ للشعر في هذا الحديث اكتفي بالتقسيم الذي ارتايته دون الخوض فيه . حتى لا اخرج عن الغرض . الا ان من يقرا على سبيل المثال باتيه مالك بن الريب . تلك القصيدة الاسطورة التي عرفت بعد نزول القرآن بعشرات السنين هل يرى فيها اي اثر للاسلام ؟ وهل يرى فيها اكثر من البناء الشعري الجاهلي بكل عباراته وموسيقاه وصوره وتشبيهاته ومعاناته ؟ بل هل يستطيع ان يرسم من خلال قراءتها اكثر من صورة الانسان الجاهلي الذي حددنا له خصائصه الفكرية والجمالية في شعره ؟

ومن يقرا شعر متمم بن نويرة ـ وهذا صحابي ـ وقصة مقتل اخيه مالك بن نويرة على يد خالد بن الوليد مشهورة . ومرثيته التي انشدها بين يدي ابي بكر مشهورة ايضا . هل يرى في هذا الشعر غير البناء الشعري الجاهلي بكل قيمه وخصائصه ؟ وان هذه المرثية التي تقع في اثر الجياد السابقات من قصائدنا الخالدة . قطعة من النار تنصب حمما . فيها فخر الجاهلي بسيفه وخمره . وكرمه وقماره . وغربته امام ظاهرة الموت . ولاخيه مالك شعر لا يقل روعة عن شعره . ومن يقرا شعر عبدالله بن عنمة الضبي وهو صحابي شهد فتح القادسية وشارك فيها ، هل يستطيع ادراج شعره الا في الديوان الجاهلي ؟

ومن يقرا شعر المرار بن منقذ . وهو اسلامي عاصر جرير وبينهما مهاجاة . بمائا يقتنع بعد قراءة شعره حتى يدرجه تحت اسماء الشعراء الذين غزا الاسلام شعرهم وتاثروا فيه . ولقد رويت له واحدة من غرره في المفضليات تصح ان تكون انموذجا مثاليا للشعر الجاهلي .

سانقتصر على ذكر هذه الاسماء وهي كثيرة جدا وجاء تصنيفها في سجل الشعر الاسلامي تاريخيا فقط . معنى هذا ان الشعر الجاهلي ظل متغلغلا الى ما بعد سقوط العرش الاموي . واذا كنا نتحدث عن الشعر الجاهلي وخصائصه علينا ان لا نقف ابدا عند نزول القرآن لنقصر شعرنا الجاهلي على الفترة الزمنية السابقة لنزوله . بل علينا ان نتغلغل مائة سنة اخرى على الاقل ونجمع قسما كبيرا من القصائد المتكاملة ونعتبرها شعرا جاهليا بكل خصائصه .

وهذا القسم من شعرنا الذي اصطلح على تسميته شعرا جاهليا يشمل نتاج الشعراء الذين لم يتاثروا بالاسلام لا من بعيد ولا من قريب . ونتاج الشعراء الذين اسلموا دون ان يطوعوا شعرهم لمفهوم الفكر الاسلامي .

حدثنا رواة ومؤرخون . ان رجلا طلب من لبيد بن ربيعة كتابة قصيدة من شعره فكتب له سورة البقرة . وقال . استبدلني الله الشعر بهذا .

وهذه القصة تدلنا على قسم من الشعراء بهرهم القرآن بلغته . وشدهم الاسلام الى حومته فتخلوا عن كتابة الشعر .

والكميت بن زيد الاسدي يمثل احد عباقرة شعرنا الذين كان القرآن شرارة فجرت فيهم طاقات هائلة من الشعر . فهو شاعر في جاهلياته . وشاعر في هاشمياته . وشاعر في كل ما كتب . وحسان بن ثابت يمثل جانبا من الشعراء الذين لم يتمثلوا الفكر الاسلامي ويعانقوا الشعر من خلاله . وملاحظة الاصمعي على شعره ذات قيمة عظمى في ان شعره سيظل في الاسلام .

اذن نافذة الشعر الجاهلي ظلت مفتوحة للتجارب الخصبة زمنا طويلا بعد الاسلام . وعندما اقول الشعر الجاهلي اعني فترة تمتد من قبل نزول القرآن بمائة وخمسين عاما الى ما بعد نزول القرآن بمائة عام تقريبا ولكنها لا تشمل شعرنا كله .